لورد دفرن

لورد دفرن ومن لم يسمع هذا الاسم من رجال هذا القطر والقطر الشامي ومن لا يعلم ان بهِ وبامثالهِ قامت المملكة الانكليزية ونشرت راياتها في الخافقين

ولولا رجال مثل دَفرِنَ مادرت بناة المعالي كيف تبنى الممالكُ

ولد في الحادي والعشرين من شهر يونيو سنة ١٨٢٦ من بيت كبير من اشراف ارلندا اصلهُ من اسكتلندا وابوهُ بارون دفرن كان من ضباط البحرية وتوفي شاباً وامهُ لادي دفرن كانت من اشهر نساء عصرها وهي من عائلة توماس شريدن المشهور ببلاغتهِ فورث من

ابيهِ حصافة الاسكتلنديين وحسن نظرهم في العواقب ومن امهِ ذكاء الارلنديين وبلاغة اساليبهم في التعبير وزاد على ذلك ان دَرَس وتربّى في احسن مدارس الانكليز في اتن واكسفرد ولم يفق اقرانهُ في درس العلوم والفنون ولكنهُ فاقهم في درس احوال بلادهِ ارلندا واسباب انحطاطها فتأهّل بذلك للنظر في احوال هذا القطر وبلاد الهند لما دُعي اليهما كما سيجيء

وورث لقب عائلتهِ وعمرهُ ١٥ سنة ثم جُعل من لوردات الانكليز سنة ١٨٥٠ فجلس في مجلس الاعيان ورحل الى ايسلندا سنة ١٨٥٥ وكتب رحلتهُ في رسائل بليغة كان لها اعظم وقع في النفوس فوُضع في الطبقة العليا بين الكتّاب لكنهُ لم يتخذ الانشاء حرفةً لهُ ولو بقي مشهورًا بحسن انشائهِ

ولما حدثت المذابح في سورية سنة ١٨٦٠ وخاف الانكليز من ان فرنسا تحتلها وتبقى فيها دواماً فتضعف تجارتهم فيها وتقوم سدٌّ في طريقهم الى الهند بعثوا باللورد دفرن ليقنع غيرهُ من مندوبي الدول الاوربية بوجوب جلاء الجنود الفرنسوية عن الربوع السورية . ويظهر لنا الآن انهُ اعتمد على آراء الكولونل تشرشل وبعض المرسلين من الانكليز والاميركان والكولونل صديق حميم الدروز والمرسلون ناقمون من الموارنة لما نالهم منهم من الاضطهاد فاقنعوهُ ان ما حدث في سورية ناتج عن ضغائن قديمة بين النصارى والدروز لا غير وانهُ اذا عوقب الدروز عقاباً صارماً او بقي الفرنسويون في سورية قوي النصارى على الدروز وعادت الفتن وتكرّرت المذابح فاقنع اكثر رفاقهِ المندوبين بصحة ما اقتنع بهِ . ولكن ان كانت مذابح لبنان ناتجة عن ضغائن قديمة بين النصارى والدروز فما سبب مذبحة دمشق ولا دروز فيها وكيف لتعهّد الجنود المنظمة بحماية نصارى دير القمر وحاصبيا وتستلم اسلحتهم منهم ثم تبيح ذبحهم ذبح الغنم ولم يكن للدروز الارض ان يخالفوا امرًا لجندي واحد

ولا شبهة عندنا في ان اللورد دفرن اقتنع بصحة ما قيل لهُ وان الذين اقنعوهُ بذلك كانوا مقتنعين بصحة اقوالهم وآرائهم فلم يخاتلوهُ ولا ختل احدًا ولو اهتدى الى وجه الصواب ما وصلت بلاد الشام الى ما وصلت اليهِ في هذا الزمان ابناؤها منتشرون في مشارق الارض ومغاربها مع ان بلادهم تكفي اضعاف اضعافهم

قالت جريدة التيمس عند كلامها على وفاة لورد دفرن ان حصافتهُ هي السبب في نجاح لبنان وفي خروج الجنود الفرنسوية من البلاد السورية . اما خروج الجنود الفرنسوية فلا شأن لنا فيهِ ولا شبهة في ان الاكثرين يشكرونهُ عليهِ . واما نجاح لبنان فوهمٌ في وهمٌ وكيف ينجح جبل صخري سلخت عنهُ السهول والمدن فحُرم موارد الزراعة والتجارة او جُعل فيهما تحت رحمة غيرهِ

ولولا الرزق الذي يجدهُ ابناؤُهُ في المهاجرة ولولا الهمَّة التي لهم حتى يكسروا الصخور و يزرعوا كرومهم في فتاتها لمات اكثرهم جوعاً

ورأت الحكومة الانكليزية حينئذٍ انها نالت بهما تمنَّت وهو خروج فرنسا من بلاد الشام واخماد الفتن التي تدعو الى عودتها اليها فحسبتهُ بين رجالها المعدودين الذين تتقي بهم نوائب الدهر

وتزوَّج بعد عردته من بلاد الشام سيدة فاضلة كانت اكبر معين لهُ في اشغاله السياسية في كندا والهند و بطرسبرج والقسطنطينية ورومية وباريس. ويذكرها نساء الهند بالمدح والثناء

وجُعل حاكماً عاماً على بلاد كندا سنة ١٨٧٢ فاحكم عرى المودة بين تلك البلاد والبلاد الانكليزية بما اظهرهُ لاهلها من الحب والولاء والاهتمام بمصالحهم وترقية شؤونهم فكان مثالاً للوالي الحكيم الذي يعزّ سلطة مولاهُ باصلاح شأن ولايتهِ ولهُ في ذلك كلام بليغ نعرّبهُ عن جريدة التيمس ليكون انموذجاً للولاة قال : ان اسمى ما ارمي اليهِ ان اخدم مولاتي الملكة في المنصب العالي الذي اقامتني فيهِ واحافظ على ما لها من المقام السامي في هذه الولاية واتمثل بمثالها المجيد في قيامي بمهام منصبي واكتسب ثقة اهالي كندا بقيامي على خدمتهم واجرائي العدالة بينهم من غير تشيع ولا تحزُّب . وان كان صدق ولائك لبلاد يُبرهَن بحبك لها من كل قلبك ونظرك الى كل واحد من اهاليها كأنهُ صديق حميم لك واهتمامك بخيرها ونجاحها اهتمام ابنائها بهما وافتخارك بكل ما فيها بمناظرها واقليمها وآداب اهلها واخلاقهم وما يسرهم ويرضيهم فحبي لكندا امر مقرر لا يمكن ان يرتاب فيهِ احد

وكان خطيباً مفلقاً شديد العارضة قوي الحجة يخلب عقول سامعيهِ بفصاحة لسانهِ لكنهُ لم يكن يلجأ الى الادلة الخطابية بل كان يعتمد على دليل العقل والاختبار

ولما ظهرت مهارتهُ الادارية ودهاؤُهُ السياسي في كندا عُرض عليهِ مسند السفارة في بطرسبرج عرضهُ عليهِ اللورد بيكنسفيلد زعيم المحافظين وهو من الاحرار لكنهُ قال لهُ وقتما عرض عليهِ هذا المنصب اننا لا نقصد ان نحاز الينا وتعضد سياستنا في مجلس الاعيان. فقبل المنصب ومضى الى بطرسبرج وكان النفور مستحكماً بين روسيا وانكلترا بسبب تشيع انكلترا لتركيا وحرمانها روسيا ثمرة حربها مع تركيا فبذل جهدهُ في تضميد الجراح وازالة البغضاء الى ان انتقلت عقدة المسألة الشرقية من بطرسبرج الى الاستانة فنُقل سفيراً اليها سنة ١٨٨١ وكانت الليالي حبالى بالمسألة المصرية ولا بدَّ لها من سياسي محنك يراقب احوالها من رجل يدهُ من حديد لكنها في كف من المخمل فأُرسل الى مصر بعد واقعة التل الكبير فنظر في ما يقتضيهِ اصلاحها ولا يبعد ان يكون قد اعتمد على آراء الذين استخلصهم من سكانها وانشأ

تقريرهُ المشهور مشيرًا فيهِ بما رآهُ من طرق الاصلاح . وقد اطلعنا على نسخة منهُ سقيمة الترجمة جدًّا وهاك بعض ما جاء فيها عن المعارف بعد تنقيحهِ قليلاً

"من الغني عن البيان ان كل مساعينا لنح مصر ادارة حسنة تحبط ما لم ننظر نظرًا دقيقًا في كل فروع المسائل التي تتألف منها تلك الادارة ونخصص كلاًّ منها بما يلائمهُ فليس للمصريين حق في التشكي من وجود عدد وافر من الاوربيين في الادارات اذا كان من المستحيل في الوقت الحاضر وجود وطنيين نائلين كل الصفات المطلوبة للقيام بالمصالح المسلَّم زمامها للاجانب . فان كنا نرغب في التخلص من هذا التشكي الشرعي فلا وسيلة لذلك الاَّ بأن تأخذ الحكومة المصرية بعزم ثابت وطوية سليمة امر تهذيب الجيل الجديد

فالمدارس الموجودة الآن في القطر المصري تنقسم كما يأتي

اولاً الجامع الازهر . وهو مدرسة جامعة يدرس فيها علم الكلام والفقه والنحو والمنطق وآداب اللغة العربية وفيهِ نحو ثمانية آلاف طالب وثلاثمائة استاذ

ثانياً المدارس التي انشأها مرسلو الاجانب ونحلهم و يبلغ عددها ١٥٢ مدرسة تحوي ١٢٢٤٧ طالباً منهم ٦٤١٩ او ٥٢ في المئة من المصريين . وخزينة الحكومة تدفع معينات سنوية لبعض هذه المدارس

ثالثاً مدارس الحكومة وتقسم على الوجه الآتي

(١) الكتاتيب البسيطة المشيدة في المدن والقرى و يبلغ عددها ٥٣٧٠ وفيها ١٣٧٥٥٣ طالباً او جزءًا من ٤٠ من عدد سكان القطر و يعلم فيها القراءة وحفظ القرآن (الشريف) غيباً و يزاد في بعضها تعليم الخط والحساب

(٢) المدارس الابتدائية ويوجد منها ٢٧ تحوي ٤٦٦٤ طالباً واحدة منها في العاصمة ونفقتها داخلة في ميزانية نظارة المعارف وفيها ٦٤٨ طالباً وهي مثال للمدارس الموجودة والتي يراد انشاؤها في مراكز المديريات والقرى الكبيرة ومدة التعليم فيها اربع سنوات في خلالها يتقوى الطالب في قراءة القرآن (الشريف) وكتابة اللغة العربية وعلم الحساب وفي غضون السنة الاخيرة منها يدرس مبادىء التاريخ والجغرافية ومبادىء لغة اجنبية (انكليزية او فرنساوية او المانية) حسب رغبتهِ والخط الاوربي ويترقى من هذه المدارس الى المدرسة العليا (التجهيزية) في القاهرة ومن هذه يتدرج الى مدرسة الصنائع والفنون

ونفقة بقية المدارس الابتدائية من ايراد بعض الاطيان في الوادي وهي التي وهبها حضرة الخديوي السابق لهذه الغاية وتؤدى من ادارة الاوقاف والاحسانات الخصوصية

(٣) المدرسة العليا في مصر وفيها ٢٩٢ طالباً يتدرج منها الى مدارس الصنائع والفنون ومدة التعليم فيها اربع سنوات يتعلم الطالب فيها لغة اجنبية والعربية والرياضيات والطبيعيات والكيمياء والتاريخ الطبيعي والتاريخ العام والجغرافيا والخط العربي والافرنجي والتصوير

(٤) مدارس الصنائع والفنون وهي

(ا) مدرسة الطب وفيها ١٧٦ طالباً ويلحق بها مدرسة الصيدلية وطلبتها سبعة ومدرسة القوابل وطالباتها عشرون (مديرها فرنسوي)

(ب) مدرسة الفنون وفيها خمسون طالباً

(ت) مدرسة المساحة وفيها ٣٩ طالباً

(ث) مدرسة الفنون والصنائع وفيها ٥١ طالباً (مديرها فرنسوي)

(ج) مدرسة الحقوق وفيها ٣٧ طالباً (مديرها فرنسوي)

(ح) مدرسة الالسن وفيها ٢٣ طالباً (مديرها فرنسوي)

(خ) مدرسة المعلمين وفيها ٦٠ طالباً (مديرها فرنسوي) .

(د) مدرسة العمال وفيها ٧٩ طالباً وهي تحت ادارة مدرسة الفنون والصنائع ويدخلها تلامذة المدارس الاولية الذين لم تظهر منهم اهلية للمدارس العالية

(ذ) مدرسة العميان والخرس وفيها ٧٥ طالباً من الجنسين

(ر) مدرسة البنات وكان لهنّ سابقاً مدرستان احداها لعائلات الذوات والثانية لعائلات الفقراء لكنهما اندمجتا معاً وفيها ٣٠٠ طالبة

(ز) المدرسة العسكرية في القاهرة (مديرها فرنسوي)

(س) المدرسة البحرية في الاسكندرية

فاذا امعنا النظر في هذا البناء الواسع الجامع مشتملات التهذيب المتوج بالجامع الازهر المنتشر صيتهُ في آفاق الارض خيل لنا ان المصريين هم الشعب الاكثر تعلماً على سطح الكرة ولكن من نكد الطالع نرى الحال بالعكس فالولد المصري يبلغ الحلم صغيراً ولهُ قابلية خاصة لتعلم اللغات والرياضيات لكنهُ متى وصل الى درجة محدودة في التقدم لا يتمشى نموّ عقلهِ تمشي نموّ جسمهِ في ادراك العلوم العالية وان الزواج الباكر هو احدى العلل الرئيسة التي تقطعهُ عن اطراد رضاعة البان المعارف وكم من الطلبة تراهم جالسين على مقاعد التعلم وهم حاملون على مناكبهم احمال الزواج وان ضعف البصر مانع آخر لنجاحهم

وهنالك ايضاً علة تجب مداواتها فانهم يستخدمون في التعليم قوة الذاكرة الى حد الافراط

و يغفلون عن تمرين بقية القوى العقلية . وطريقة التعليم في الجامع الازهر جافة وغروسها في العقول عقيمة لا تثمر فائدة ولا نتاجاً حين العمل

وقلما تبلغ تلميذ من الفرق الاولى في مدارس الحكومة بانتهاء مدة دروسه الى درجة تؤهله للانتقال الى مدرسة اعلى على انهُ ينتقل اليها لينوب مناب الخارج منها ويملأ الفراغ فتكون النتيجة انهُ يباشر دروساً عالية حالة كونهِ لم يتم دروسهُ الابتدائية

وفي اوربا ٤٩ شاباً مصرياً مرسلون من مدارس الصنائع والفنون لاتمام دروسهم والحكومة المصرية تنفق على اربعين منهم والتسعة الآخرون ينفقون على انفسهم وهم موزعون كما يأتي : في فرنسا ٤٧ . في انكلترا ١ . في سويسرا ١ . و ١٤ منهم يتعلمون الطب . و ١٠ الحقوق . و ٢ الهندسة . و ٢ الهندسة الآلية . و ٨ يتجهزون للدخول في مدرسة البيطرة . و ١٣ يتجهزون للدخول في مدرسة الطب

فالمدرسة العليا (الحاوية ٢٩٢ طالباً) هي الوحيدة التي يؤخذ منها التلامذة لمدرسة الصنائع والفنون وهي غير كافية لسد الطلب ولكن يمكن سد هذا الخلل موقتاً باخذ تلامذة مدرسة الصنائع والفنون من تلامذة المرسلين الاجانب لانهم انجح من تلامذة مدرسة الحكومة لكن الوزارة عارضت ذلك حتى الآن بقولها ان تلامذة مدارس الاجانب لا يتقنون اللغة العربية كما يتقنون باقي الفنون . وبما ان مدارس الصنائع والفنون ومدرسة المساحة ومدرسة الصنائع ذات بغية واحدة اعني اخراج مهندسين وآليين فلربما افاد ادماجها في سلك واحد تحت ادارة واحدة

ومدرسة الحقوق التي يجب ان ينتقى منها القضاة وارباب المجالس مشيدة على اسس ملائمة لمقتضيات القطر . وبما ان المجالس الوطنية والمجالس العدلية من الامور الكثيرة الاهمية فيجب توسيع هذه المدرسة بزيادة عدد اساتذتها وانتقاء عدد وافر من تلامذة مدارس الحكومة والاجانب وادخالهم فيها

ويجب تنظيم مدرسة اللغات على اساس يوصل الى تخريج العدد الاكبر من المترجمين والمستخدمين الثانويين لمصالح الحكومة فان اكثر المترجمين الرسميين في الوقت الحاضر من السوريين الذين برعوا بسبب حسن التعليم الذي تلقوهُ من مدارس المرسلين الاميركان والفرنسويين والالمان في سوريا

وقد تقادم عهد الكتب المستعملة في مدارس الصنائع والفنون وما ذلك الاَّ لقدم ترجمتها ونشرها في اللغة العربية

ومما يحتاج اليهِ القطر مدرسة زراعية لانهُ زراعي صرف فمحصولاتهُ تبلغ سنوياً نحو ١٥ مليون جنيه ولا ريب ان هذا الايراد ينمو جداً اذا استخدمت الطرق العلمية في التسبيخ وتعاقب المزروعات . وطلبة هذا العلم المتقون من اصحاب الاطيان في المديريات يستطيعون تمرين انفسهم واختبار دروسهم في الدوائر الزراعية الواسعة كالدائرة السنية والدومين

ومن اهم ما تحتاج اليهِ مدارس الحكومة مفتشون مهرة فاذا عُين هؤلاء تحت رئاسة مفتش عام بارع زالت اكثر عيوب الطريقة المستعملة الآن على انهُ ولو تعين هؤلاء ما امكنهم ان يراقبوا كل مدرسة الا مرة في السنة لان المدارس في القطر تزيد على ستة آلاف . ويكون من واجبات المراقبين ان يلاحظوا تعيين الاساتذة ولا يقبلوا غير البارعين منهم وان يراقبوا امتحان التلامذة ولا يدعوا تلميذاً ينتقل من فرقة الى اعلى منها او من مدرسة الى اسمى منها ما لم يتحققوا انهُ بلغ ما يؤهلهُ لذلك . ويكون من خصائص المفتش ان يرفع عن عاتق الحكومة نفقات الذين لا يتبين لهُ ان عندهم اهلية لتلقي العلوم العالية ومن شؤون المفتش ايضاً ان يزور مدارس الاجانب ليضيف الى علومها علوماً أخرى من شأنها ان تؤهل تلامذتها للدخول في مدرسة الحكومة العليا او في مدارس الصنائع والفنون . فان لم تكن طريقة التفتيش حسنة فكل القوانين والترتيبات مهما كانت هيئتها عملية ودقيقة تعتبر عديمة الجدوى

وبما اني شاهدت عياناً النجاح التام الذي نالهُ البلغار والارمن في مدرسة روبرت الكلية بجوار الاستانة اراني شديد الميل لتحصيل مثل تلك النتائج بادخال مثلها في القطر المصري

واخال ان امل التقدم ضعيف ما دام العامة تتعلم اللغة الفصيحة العربية لغة القرآن كما في الوقت الحاضر ولا تتعلم اللغة العربية الدارجة لان نسبة اللغة المصرية الدارجة الى لغة القرآن كنسبة الايطالياني الى اللاتيني واليوناني الحديث الى اليوناني القديم. وعربية الفلاح لغة قائمة بنفسها وقواعدها خاصة بها . واذا لم تؤخذ هذه الاحتياطات الضرورية للحصول على النتائج الفعلية من المدارس العديدة التهذيبية التي اشرت اليها يستر الجيل الجديد كسابقهِ غير صالح لخدمة وطنهِ سواء كان للقيادة في العسكرية او في الصنائع او في الخدمات العمومية وتظل عبارة "مصر للمصريين" كما كانت اسماً بلا مسمّى " . انتهى

وعاد من مصر الى الاستانة وكأنهُ قضى المهمة التي اقيم لها فيها على اتم المراد فانعمت عليهِ الملكة بحكمدارية الهند فمضى اليها سنة ١٨٨٤ واقام فيها الى سنة ١٨٨٨ ويقال ان تلك السنوات الاربع كانت اكثر ايامهِ اشتغالاً فسكّن ما في بلاد الهند من الاضطراب لانهُ جرى في الطريقة الوسطى بين الوطنيين الطالبين حكومة نيابية كالحكومة الانكليزية وبين الانكليز

الطالبين ان لا يعطى الوطنيون حقًّا من الحقوق السياسية . وارضى المسلمين من غير ان يغيظ الهنود وعزَّز النفوذ الشمالية الغربية واضاف مملكة برما العليا الى الاملاك الانكليزية . واهتمت زوجتهُ لادي دفرن باحوال النساء وترغيب الطبيبات في الذهاب الى الهند لتطبيبهنَّ . وتعلم اللغة الفارسية وهو هناك لكي يخاطب الفرس بها . ثم لما استعفى من حكمدارية الهند مُنح لقب مركيز دفرن وآفا . واسم آفا هذا اسم قديم لبلاد بُرما التي ضمها الى السلطنة الانكليزية . وجُعل سفيرًا في ايطاليا فسوَّى المسائل التي بين ايطاليا وانكلترا في ما يتعلق بالسودان الشرقي ونُقل في اواخر سنة ١٨٩١ الى باريس فبقي فيها الى سنة ١٨٩٦ وخيف من وقوع الخلاف بين انكلترا وفرنسا في هذه المدة على مصر وعلى سيام واتفقت فرنسا وروسيا والمانيا على اليابان في الحرب الصينية اليابانية فخافت انكلترا من العبث بمصالحها في الشرق الاقصى واتفقت فرنسا والمانيا على انكلترا في مسألة النيجر في افريقية فكان لهُ اليد الطولى في حل هذه المشاكل السياسية على ما فيها من التعقيد . ومُنح وهو هناك لقب حارس المدن الخمس ولما استعفى من سفارة باريس سنة ١٨٩٦ عاد الى ارلندا ولكن لم تصافهِ الليالي في اخريات ايامهِ بل نغصت عيشهُ فقتل ابنهُ البكر في حصار لادي سمث وبان خلل كبير في شركة مالية كان لهُ علاقة كبيرة بها فخسر فيها امواله وذلك كلهُ مضافًا الى متاعب الشيخوخة وفقد السمع عدم ما بقي فيهِ من القوَّة فتوفي بعد مرض طويل في الثاني عشر من فبراير وحالما بلغ نعيهُ ملك الانكليز بعث بتلغراف التعزية الى لادي دفرن يقول فيهِ

" اننا بالاخلاص التام نشاركك في خسارتك التي لا تعوَّض "

وبعث برنس اوف ويلس وزوجتهُ يقولان " اننا باشد الاسف سمعنا عن وفاة زوجك العزيز فحزنَّا معكِ ومع عائلتكِ ونقدم لكِ تعزياتنا القلبية "

وارسل دوق كنوت الى ابن لورد دفرن يقول " لقد حزنَّا حزنًا شديدًا انا والدوقة واني حزين لمصابكِ ومصاب لادي دفرن وارجو ان تجد صبرًا على هذا الخطب الفادح "

ووردت تلغرافات التعزية من لورد سلسبري ودوق ارجيل ولورد روزبري وغيرهم

وقالت جريدة التيمس في تأبينهِ ان خدمتهُ لبلادهِ لم يسبق لها مثيل في تاريخ انكلترا فانهُ لم يحدث ان انسانًا واحدًا كان حاكمًا لكندا وحاكمًا للهند وسفيرًا في اربع سفارات كبيرة ... ثم لما آن الاوان ليستقيل من الخدمة ويستريح من عناء الاشغال لم يكن سفير ولا حاكم احق منهُ بتلك الراحة . ولولا ما نُغص بهِ عيشهُ في اخريات ايامهِ لكانت سعادتهُ تامة . . . وقد شمل الحزن عليهِ السلطنة الانكليزية لانهُ كان من انفع رجالها وانجبهم واعلاهم همة